أجل، فقد حوّلت دولاً إلى شرذمة.. عصابة

لماذا تجف الاقلام عندما يغيب الاعزاء ؟ لقد جف قلمي عندما استشهد غسان وكذلك عندما استشهدت .

لكنك كنت ولا زلت معي ومع رفاقي تماما كما كان « غسان » وبقي تماما كما بقي « جيفارا غزة » .

فأنت وهما وجميع الشهداء اكبر واثمن من ان تقاسوا بالوجود المادي .. كنتم وستكونون وجودا فكريا وسياسيا ومثلا نقتدي به نحن .. وتقتدي به الاجيال القادمة .

***

آخر لقاء لنا سويا لا زال حيا كأنه بالامس . كنت فوق مستوى الرجال كعادتك .. ابتسامتك المريحة المتفائلة تزين وجهك الذي طالما بحثنا فيه عن المستقبل .

جوابه الدائم كان الثقة بالمستقبل .. بحتمية الانتصار .. وبالنفس الطويل الهادىء والمفكر .

تكلمنا عن الثورة العربية وعن فصيلها الفلسطيني .

تكلمنا عن التخلف وكيف نحاربه .. عن العجز وكيف ننهيه .. عن العدو وكيف نواجهه ..

كنت صلبا لا تلين امام تشاؤم الاخرين .. كان التصميم فيك اكبر من ان يقاس تفاءل به معارك منتصرة ضد كل المترددين .

ودعتني بحب كبير وحنو اكبر فقد كنت تشعرني برفاقيتك دون كلام .. كانت نظرة تكفي لتقول الف كلمة . وقلتها لي تلك الليلة قبل ان نسافر وان نفترق .

***

باسل كبيسي ، عرفتك قبل ان اعرفك .

عرفتك عندما كانت تصلنا اخبار نضالك وتضحيتك . وبدات منذ ذلك الوقت ارسم في ذهني صورة لك .

ولكن عندما عرفتك فاقت صورتك توقعاتي وتخيلاتي وتفوقت بذلك على نفسك ..

يا صاحبي وعزيزي .. نضالك تفوق على الكثير .. الكثير .

***

بعيدا عن الاضواء وعن المواقع بدات نضالك وتابعته وتوجته باستشهاد .. صامت ايضا .

وكانك انت الذي اوصيت بذلك .

استشهدت ورافقك في موكبك قادة ابطال مثلك فشاءت بذلك الاحداث ان تنفذ وصيتك التي حرصت على كتابتها طوال حياتك النضالية .

وظلمتك الاحداث .. ليس لانك كنت تريد الاضواء .. بل لان فكرك ورايك لم يظهرا بالحجم الذي يناسبهما فقد كنت معلما من معلمي النضال يجب على الاجيال القادمة ان تبقى على يديك تتلمذ .

وحدة النضال العربي كنت تقاتل من اجلها . ترابط نضالات الشعوب العربية كنت تجسده في كل عمل . الالتزام الذي لا تفله الظروف مهما صعبت علمتنا كيف يبنى وينمي . الانضباط الحديدي الواعي رغم كل المعسكرات والمعوقات كنت امثولة فيه . وبعد كنت بروليتاريا في فكرك والتزامك وصرامة نضالك وطول النفس .

***

وعلى حافة رصيف باريسي تصدت لك اليد الفقيرة لتغتالك . فقيرة ضعيفة لانها لم تستطع ان تنل من عظمتك وفكرك ومبادئك . ضعيفة حولت انت عملها عندما استشهدت الى انتصار للثورة العربية وللفكر الثوري .. اجل فقد حولت دولا يا عزيزي الراحل الى شرذمة .. عصابة .. تبحث في الطرق المظلمة عن النور لتطفئه .

لكنها فشلت واعطيت الفكر الذي ناضلت من اجله دما جديدا ودفعه قوية للامام .

لكنني ورفاقي فقدناك واليوم مضى على ذلك ستة اشهر ، اثبتت فيها الاحداث ، رغم قصر المدة ، ان ما قلته ورايته قبل غيرك كان صحيحا .

افتقدك يا باسل لانك كنت رأس طليعة تختلف نوعا ونضوجا .

افتقدك لانك كنت قائدا وجنديا وكم يندر مثل هؤلاء في ايامنا هذه .

افتقدك لانني كنت اتمنى ان ترى انتصارنا معنا .

ولكن يعزيني يا رفيقي الحبيب انك لا زلت تسري في عروقنا قادة وجنودا على طريق النضال بفكرك .. بصلابتك .. بانضباطك والتزامك .

***

لست ممن يجيدون بث التعزية بالكلمات .. لكنني ورفاقي نجيدها .. لا بل نجيدها جيدا ويعرف ذلك عدونا قبل غيره ، بالعمل . العمل الصامت الذي علمتنا اياه ..

تعزيتي اننا سنحقق آلاف الانتصارات الصغيرة .. وعدنا لك وللشهداء .. لانها في النهاية ستكون الانتصار الكبير .

هكذا سنكون قد اكسبنا وجوهنا بسمتك الواثقة وعزيمتنا صلابة ونضالنا انتصارا . وهكذا سيراه رفاقك واحبابك اينما كانوا في المغرب العربي او في مشرقه .

اليهم اقول شدوا من عزائمكم فهكذا يريدها باسل . وانتضوا سلاحكم فهكذا يريدها باسل وقاتلوا بنفس طويل وتنظيم متين فهكذا يريدها باسل ■■

بسام ابو شريف